المحاضرة الثانية:..مفهوم الأسلوبيـــة

I – مفهوم الأسلوبيـــة :

أطلق الباحث فون درجابلش (V.D.Belants) (1875) مصطلح الأسلوبية و البلاغية في الكتابة الأدبية ، أو هي ما يختاره الكاتب من الكلمات و التراكيب و ما يؤثره في كلامه ، عما سواه ، لأنه يجده أكثر تعبيرا من أفكاره و رؤاه"[1]، والأسلوبية على هذا الأساس تعنى بكل ما هو غير مطابق للواقع و خارج عن المألوف في الكلام الفني في رحلة بحثه عن الرحيق الجمالي للنصه الأدبي ، وقوفا على المفردات و الأساليب التي يراها المبدع الأنسب لتبليغ الرسالة و الأكثر تعبيرا أو تأثيرا .

وفي سنة 1887 جاء العالم الفرنسي جوستان كريرنتج(G .Krir Interj.) ، الذي بشر بعلم يبحث في الأسلوب من خلال انتباهه إلى فكرة الأسلوب الفرنسي المهجور في تلك الفترة، إذ تبين له أن واضعي الرسائل الجامعية يقتصرون في أبحاثهم على وضع تصنيف لوقائع الأسلوب، التي تلفت أنظارهم طبقا للمناهج التقليدية المتعارف عليها. وهذا في حدّ ذاته وفق رؤية ريفاتير(M. Riffaterre)، تنبيه بأن الهدف من هذا النوع من البحوث ينبغي أن يتوجه للبحث في أصالة التعبير الأسلوبي، أو خصائص النتاج الأدبي التي تكشف عن هيأة الأسلوب في حلته الأدبية، والتي تكشف عن أوضاع الأسلوب في الصناعة الأدبية.

و يرى أغلب المؤرخين للأسلوبية أن شارل بالي (charle Bally)(1902) ، هو من أصل لعلم الأسلوب و أسس قواعده النهائية ، بدراسة العناصر التعبيرية في اللغة ، تعبيرا و تأثيرا .

ليأتي بعده ما روزو (MARROUZOU) و كراسو (Crasou) الذين نادا بشرعية الأسلوبية ، وعداها علما له مقوماته و أدواته الإجرائية ، و موضوعة (الأسلوب) ، و دعم هذا الرأي جاكسون (R Jakobson) و ميشال ريفاتيير (M. Riffaterre) و ستيفن أولمان (S. Ullman) و غيرهم .

ولكن صفوة القول، أن الأسلوبية تطورت في مقابل اللسانيات - بين أخذ و رد و تأرجحت بين موضوعية الدال والمدلول والقراءة الشخصية، الأمر الذي دفع " جون ماروزو " (j. Marrouzou) في بحثه ملخص الأسلوبية الفرنسية (De stylistique Français Précis) إلى نزع البعد المعرفي (الإبستيمي) عن الأسلوبية و تقديمها كفرع من اللسانيات، و قد تقاطعت الأسلوبية إلى حد التداخل مع اللسانيات السوسيرية ، التي عرفت صلابة الأسس على يد فرديناند دي سوسير (Fde Saussure) ولا عجب في ذلك لأن من أسس لها وطور معالمها شارل بالي - أحد تلامذته- في كتابه مصنف الأسلوبية الفرنسية (Traite de stylistique Française) - بالتركيز على الأسلوبية اللغوية، أي الأبعاد النفسية والوجدانية في اللغة (ما سمّاه التعبيرية اللغوية) .

يعرف " شارل بالي " الأسلوبية بأنها " دراسة قضايا التعبير عن قضايا الإحساس و تبادل التأثير بين هذا الأخير و الكلام... والأسلوبية كفرع من اللسانيات العامة تتمثل في جرد الإمكانات و الطاقات

التعبيرية للغة بالمفهوم السوسيري [2] ، إنها الوجه الجمالي للألسنية ، تبحث في الخصائص التعبيرية و الشعرية التي يتوسلها الخطاب الأدبي ، و ترتدي ـ بذلك ـ طابعا علميا تقريريا في وصفها للوقائع و تصنيفها بشكل موضوعي و منهجي .

وعليه، يقول جوزيف ميشال شريم: "الأسلوبية هي تحليل لغوي موضوعه الأسلوب وشرطه الموضوعية، وركيزته الألسنية" [3]،

و مارشال كروسو ـ أحد طلبة بالي ـ حوّل الجانب الوجداني للغة إلى المفهوم الجمالي، ومن هذه الزاوية أسس علاقة تكاملية مع البلاغة والنقد ، تبعه في الإطار نفسه بيار غيرو (Pierre Geauraid) الذي شدّد على إزدواجية وظيفية بين المدى الأسلوبي و التفكير البلاغي ، و كلاهما يتقاطعان فوق مساحة التركيب و الكلام و النص الأدبي [4] .

يقول بيار غيرو عن الأسلوبية : " هي دراسة المتغيرات اللسانية إزاء المعيار القاعدي ، و هذا ما يتطابق مع التقليد القديم الذي يضع البلاغة في مواجهة القواعد ، والقواعد في هذا المنظور هي " مجموعة القوانين ، أي مجموعة الالتزامات التي يفرضها النظام والمعيار على مستعمل اللغة ، فالأسلوبية تحدد نوعية الحريات في داخل هذا النظام القواعدي (باعتبار أنها) العلم الذي لا يستطيع الكاتب أن يصنعه ، أما الأسلوب ، فهو ما يستطيع فعله، و لكننا لا نخلط بين ما يستطيع فعله و ما يفعله ، لأن هذا هو موضوع نقد الأسلوب على مستوى النص " [5] .

يتضح لنا من قول " بيار غيرو" أن الأسلوبية عندما تدرس نصا معينا فإنها تسعى إلى تحديد الخصائص النوعية التي خضع لها النص من جانبه اللغوي ، فإن حدث تجاوز للقاعدة فلهذا التجاوز غاية على الملتقى، والأسلوبي بخاصة ، وفي هذه الحالة على هذا القارئ أن يجد تفسيرا لكل انحراف أو عدول حدث في النص، أي التشديد على ضرورة تبني الإحساس من أجل تعيين الوقائع الأسلوبية في الخطاب الأدبي، كما سبق وأشار إلى ذلك شارل بالي؛ فلقد حاول "بيار غيرو" تأكيد علاقة الأسلوبية بالبعد اللساني ، والذي يجعل الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب ، طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته الإبلاغية، ليطور جيرو هذا التعريف، بإضافة البعد الجمالي أو بعد العلاقة الرابطة بين حدث التعبير و مدلول محتوى الصياغة للبعد اللساني في تعريف الأسلوبية، فيجعلها "علم دراسة الأسلوب دراسة موضوعية" [6] ، لأن اللغة لم تعد انعكاسا في الذاكرة الإنسانية لشكل خارجي، ولكنها باتت أداة تعبيرية عن تجربة حسية للإنسان، أي عن موقف عملي ، وتعبر مباشرة عن أفكار الفرد و مشاعره، ومن ثمة عن مشاعر المجتمع و أفكار و آمال الأمة، وعليه حاول الكثير من الباحثين في العصر الحديث تعريف الأسلوبية من خلال تأصيلها في الدراسات النقدية الحديثة التي تتوزع بين النظرية و التطبيق.

ومنه فالأسلوبية تهدف إلى دراسة النص كظاهرة لغوية فهي لا تدرس جانبا فيه دون آخر و إنما تدرس كل مكونات النص من أصغر وحدة لغوية إلى أكبرها فيه ، مع محاولة إدراك الأبعاد الدلالية التي تتضمنها السياقات المنزاحة عن منطلقها اللساني [7] .

ومن كل الأقوال السابقة تعدّ الأسلوبية علما عني بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة ، و تسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية ، و هنا تطرح الأسلوبية تساؤلا علميا عن الذي يجعل الخطاب الأدبي الفني مزدوج الوظيفة والغاية ، و يؤدي ما يؤديه الكلام عادة، وهو إبلاغ الرسالة إبلاغا دلاليا، وتسليط قوة ضاغطة على المتقبل، فتجعله ينفعل مع مضمون الرسالة المبلغة انفعالا ما، ما كان ليحدث لولا هذه الخصائص(هذا الاستعمال)، ولولا هذا التبليغ الأسلوبي المميز والمتفرد.

و عليه، تسعى الأسلوبية إلى أن تكون علما تحليليا تجريديا يرمي إلى إدراك الموضوعية في حقل جمالي، في غير منهج عقلاني يكشف البصمات التي تجعل السلوك اللساني ذا مفارقات عمودية و يرمي إلى إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكا نقديا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظائفية [8] .

لذلك يقول ريفاتير: " أراها علما يعني بدراسة الآثار الأدبية دراسة موضوعية ، وهي لذلك تعنى بالبحث عن الأسس القارة في الأسلوب لإرساء علم الأسلوب، وتنطلق من اعتبار النص الأدبي بنية لسانية تتحاور مع السياق المضموني تحاورا خاصا"[9]؛ فالأسلوبية تقوم على دراسة الأسلوب في ذاته ومن أجل ذاته، بتفحص أدواته و أنواع تشكيلاته الفنية، ونسيجه اللغوي ، أي تتناول الأسلوب (أو النص الأدبي) بوصفه رسالة لغوية قبل كل شيء، خلق ليحقق الإبلاغ والإمتاع والتأثير للتغيير.

و هو الأمر الذي يؤكده رومان باكسيون في قوله " الأسلوبية بحث عمّا يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا " [10] ؛ إذ تعنى الأسلوبية ، في هذه الحال ـ بدراسة الخصائص اللغوية التي تنقل الكلام من مجرد وسيلة إبلاغ عادي إلى أداة تأثير فني ، غايتها التأثير في المتلقي وإثارته وإمتاعه .

ليأتي–بعد هذا- جوزيف ميشال شريم ويقول في تعريف الأسلوبية الآتي:"الأسلوبية هي تحليل لغوي موضوعه الأسلوب و شرطه الموضوعية، وركيزته الألسنية"[11]؛ فالأسلوبية-بذلك- تقوم على دراسة الأسلوب في ذاته ومن أجل ذاته ، بتفحص أدواته وأنواع تشكيلاته الفنية ونسيجه اللغوي.

وعليه، فالتحليل الأسلوبي و التنظير له يتحولان إلى أضواء كاشفة أو إلى معاول ذهبية تنبش كنز الشخصية المخبوء ، فيظهر منه عيانا ما كان خافيا ، و بذا يصبح الأسلوب مرآة تعكس ما في نية الكاتب /

المرسل من دقيق المعاني ، و به نرى ليس جسده الخارجي فقط (أي نصه المكتوب) و لكن أيضا مقومات هذا الجسد الفني و منطلقاته الذهنية و دوافعه الإنسانية [12] .

و تبقى الأسلوبية الدرس العلمي للغة الخطاب ، بل هي أيضا الموقف من الخطاب ولغته ، إنها العلم الذي " يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها أيضا ـ علم يدرس الخطاب موزعا على مبدأ هوية الأجناس، و لذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات، ومتنوع الأهداف والاتجاهات، وطالما أن اللغة ليست حكرا على ميدان إيصالي دون آخر ، فإن موضوع الأسلوبية ليس حكرا أيضا على ميدان تعبيري دون آخر" [13].

وعن تلقي المصطلح" الأسلوبية" في الدراسات اللسانية والنقدية المعاصرة، فقد عمل على ترويجه الدراس " عبد السلام المسدي" و هو عنده مقابل لمصطلح (Stylistique) بالفرنسية و (Stylistics) بالإنجليزية و تبعه ـ في ذلك ـ محمد عزام ، منذر عياش ، عدنان بن ذريل ، عزه آغا ملك ، فتح الله أحمد سليمان و غيرهم .

أما سعد عبد العزيز مصلوح ، فيؤثر ترجمة المصطلح إلى الأسلوبيات ، لأنها أطوع في التصريف و سيرا على سنة السلف، و يميل صلاح فضل إلى "علم الأسلوب" و يراه جزء من علم اللغة، وعلى الرغم من الاختلاف في تداول المصطلح الدال على هذا المجال من البحث، إلا أنها مصطلحات تشير كلها إلى الدرس العلمي الموضوعي للأسلوب الأدبي .

---

[1] - نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث) . تحليل الخطاب الشعري والسردي ؛ دار هومة ، الجزائر ، 1998 ، ج1 ص 13

[2] - المرجع نفسه ، ج1 ص 16

[3] - جوزيف ميشال شريم ، دليل الدراسات الأسلوبية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان .، ط1 ، 1984م ، ص 38-37

4- ينظر : نور الدين السد ، المرجع نفسه ج1 ص 17

[5] - بيارغيرو ، الأسلوب والأسلوبية ، ص 08

[6] - ينظر بيار جيرو ، الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، دار الإنماء القومي ، بيروت ص29

[7] - ينظر : نور الدين السد ، المرجع نفسه ، ج2 ، ص 18

[8] - المرجع نفسه ج1 ص15

[9] - فرحات بدوي الحربي ، الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 2003 ص 15

[10] - عبد السلام المسدي ، الأسلوبية والأسلوب ، ص 33

[11] - جوزيف ميشال شريم ، دليل الدراسات الأسلوبية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان .، ط1 ، 1684 ، ص 38-37

[12] - منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري سوريا ، ط1 ، 2002 ، ص 146

[13] - المرجع نفسه ، ص27